الفصل الثالث

في عذاب القبر ونعيمه

قال: وَمِنْ حَيَاةِ قُبُورٍ مَا[1] يُـذَاقُ بِـهِ لَـذَّاتُ نَعْمَـاءٍ أَوْ آلاَمُ دِيـدَانِ [2]

أقول[3]: اتفق أهل الإسلام[4] على وقوع نوع من الحياة في القبر قدر ما يعرف به لذة التنعيم للمؤمنين وألم التعذيب[5] لبعض العصاة والكافرين . وخالفهم ضرار[6] وبشر [7] وكثير من المتأخرين من أهل الاعتزال [8] .

---

(١) أ: مما .

(٢) وهذا الصنيع ـ كما يقول السعد عن صنيع النسفي في عقائده ـ «أولى مما في عامة الكتب من الاقتصار على إثبات عذاب القبر دون تنعمه بناء على أن النصوص الواردة فيه أكثر وعلى أن عامة أهل القبور كفار وعصاة ، فالتعذيب بالذكر أجدر» . انظر شرح العقائد: ١٦١/١ .

(٣) أول ق ٧٢ في ز .

(٤) انظر للتفصيل أبكار الأفكار للآمدي : ٣٣٢/٤-٣٤١ ، شرح المواقف للشريف الجرجاني: ٣٤٥/٨-٣٤٨ ، شرح المقاصد للتفتازاني: ٣٦١/٣-٣٦٦ ، شرح العقائد له: ١٦١/١-١٦٣ .

(٥) ز: زيادة (للتعذيب) .

(٦) هو ضرار بن عمرو ، ظهر في أيام واصل بن عطاء ، وقد وضع بشر بن معتمر كتابا في الرد على ضرار سماه «كتاب الرد على ضرار» . انظر مقالات الإسلاميين: ٣٣٩/١ ، ٣٤٠ ، الفرق بين الفرق: ٢٢٣-٢٢٥ .

(٧) هو بشر المريسي؛ لا بشر بن المعتمر؛ كما عينه الآمدي في أبكار الأفكار: ٣٣٢/٤ . وهو: بشر ابن غياث المريسي تفقه أول أمره على قاضي القضاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ولما أظهر قوله بخلق القرآن هجره أبو يوسف . مات في سنة ٢١٨ . انظر مقالات الإسلاميين: ٢٢٢/١ ، ٢٢٣ ، الفرق بين الفرق: ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٨) وقد نسب الأشعري القول بإنكار عذاب القبر إلى المعتزلة مطلقا من غير تفصيل ، وينسبه أيضا إلى الخوارج . هذا في مقالات الإسلاميين: (٢٠٦/١ ، ١١٦/٢) ، إلا أن عبارته فيما يروى عنه ابن فورك في مجرد مقالات الشيخ الأشعري:(١٧٦) تُوهِم أن هذا القول ينسب إلى بعض المعتزلة. ولكن القاضي-

لنا قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٦)، فإنه قد عطف عذاب القيامة على عرض النار صباحا ومساء ، فإذا هو غيره وليس ذلك إلا في القبر قبل [1] الانتشار ، وقوله ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:١٦٩-١٧٠). وقوله ﷺ «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران»[2] وقوله «استنزهوا عن البول فإن أكثر عذاب القبر منه»[3] وقوله حين مر على قبرين «إنهما ليعذبان[4] وما يعذبان في كبيرة ؛ لأن أحدهما كان لا يستنزه عن البول ، والآخر كان يمشي بالنميمة»[5] . وبالجملة

= عبد الجبار يدفع هذه التهمة عن أهل الاعتزال فقال «وجملة ذلك أنه لا خلاف فيه بين الأمة إلا شيء يحكى عن ضرار بن عمرو ، وكان من أصحاب المعتزلة ، ثم التحق بالمجبرة . ولذا ترى ابن الراوندي يشنع علينا؛ ويقول: إن المعتزلة ينكرون عذاب القبر ، ولا يقرون به» شرح الأصول الخمسة : ٧٣٠ وما بعدها . وفي رأيي ـ رغم دفاع عبد الجبار ـ لا بعد في نسبة ذلك إلى المعتزلة ، لأن من أصولهم إنكار الأحاديث والآثار ، هذا ما صرح به الأشعري (مجرد مقالات: ١٧٦) — تعليلا منه لإنكار المعتزلة - «لإنكارهم الآثار وتكفيرهم أهل الرواية والنقل». وقارن أيضا الإنصاف للباقلاني: ٧٠ ، شرح المقاصد: ٣٦٢/٣ ، حاشية ملا أحمد على شرح العقائد: ١/ ١٦٢ . ويقول ابن حزم (الفصل : ٤٣٧/١): «ذهب ضرار بن عمرو الغطفاني أحد شيوخ المعتزلة إلى إنكار عذاب القبر وهو قول من لقينا من الخوارج وذهب أهل السنة وبشر بن المعتمر والجبائي وسائر المعتزلة إلى القول به وبه نقول لصحة الآثار عن رسول الله ﷺ به» .

(١) أول ق ٦١ في أ .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة والرقائق ، عن أبي سعيد: ٦٣٨/٤ ، رقم (٢٤٦٠) ، وقال هذا حديث غريب.

(٣) أورده الحافظ ابن حجر في الفتح: ٣٣٦/١ ، ٢٤٢/٣ من حديث أبي هريرة وقال «صححه ابن خزيمة وغيره» .

(٤) ز: لا يعذبان .

(٥) متفق على صحته؛ رواه البخاري في صحيحه ، في الوضوء ، باب من الكبائر: ٢٧٣/١ ، ومسلم في صحيحه ، كتاب الطهارة ، باب الدليل على نجاسة البول ، عن ابن عباس: ٢٠٠/٣ .

الأحاديث الواردة فيه أكثر من أن تحصى[1] بحيث بلغ القدر المشترك فيما بينها[2] حد التواتر .

واحتج المخالف بقوله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (الدخان:٥٦) ، ولو كان في القبر حياة ولابد أن يكون فيها موت أيضا تحقيقا لإحياء الحشر الثابت بالاتفاق ، لكان لهم قبل دخول الجنة موتتان ؛ لا موتة[3] واحدة كما يشعر به صيغة المرة وتاء الوحدة . فإن قيل: كيف يصح استثناء الموتة المذوقة قبل دخول الجنة من الموتة المنفية فيها . قلنا: أجاب عنه صاحب الكشاف[4] بأن المراد أنهم لا يذوقون فيها الموت[5] البتة فوضع قوله إلا الموتة الأولى موضعه[6] على سبيل التعليق بالمحال كأنه قيل لو كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل لذاقوا فيها الموت ، وليس فليس .

وقد يقال: الاستثناء منقطع ؛ أي لكنهم ذاقوا الموتة الأولى ، ويمكن أن يقال إن المراد لا يذوق أهل الجنة فيها موتا مغايرا في الكيفية لموت الدنيا كما يذوقه أهل النار فيها . فإن قلت: فيفهم[7] منها أن يذوقوا موتا مشابها للموتة الأولى وهو باطل بالإجماع . قلنا: ممنوع ؛ بل هي ساكتة[8] عن التعريض بذلك نفيا وإثباتا ، ثم استفيد انتفاؤه من مواضع أخر . والجواب ــ والله أعلم بالصواب ــ أن حياة القبر لما كانت ضعيفة الأثر كانت في حكم الموت وعداده بالنسبة إلى الحياة الكاملة . والمعنى أنهم يتصفون في الجنة بالحياة الكاملة الأبدية ولا يتجاوزون إلى عدمها البتة . وبهذا اندفع

---

(١) أ: يحصى . (٢) ز ، أ: بينهما . (٣) أ: موت .

(٤) هو محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم جار الله ، كان أديبا مفسرا معتزلي المذهب ، ولد سنة ٤٦٧ هـ/١٠٧٥ م وتوفى سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٤ م ، من تصانيفه تفسير الكشاف ، أساس البلاغة ، الفائق في غريب الحديث . انظر معجم الأدباء: ٧٠/٢ ، الفوائد البهية للكنوي: ٢٠٩ ، الأعلام: ١٧٨/٧ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة: ٨٢٢/٣ ، ٨٢٣ .

(٥) أ: الموتة . (٦) ز: موضوعة . (٧) أ: بدون (فيفهم) .

(٨) أ: ساكنة .

أيضا تمسكهم فيه بقوله تعالى ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ (غافر:١١) ولو كان في القبر إحياء لكانت الإحياء[١] ثلاثة ؛ في الدنيا وفي القبر وفي المحشر[٢] . وقد يجاب بأن إثبات[٣] الاثنتين لا ينافي وجود الثالث . وفيه أن الأعداد من الألفاظ الخاصة الدالة على مدلولاتها دلالة قطعية كما تقرر في أصول الفقه . نعم يمكن ذلك ممن جعل الأدلة اللفظية[٤] ظنية مطلق فتدبر .

ومنهم من استدل بالآية الكريمة على ثبوت الإحياء في القبر بأن المراد بالإحياءين والإماتتين[٥] هو الإماتة قبل الدخول في القبر ثم الإحياء في القبر ثم الإماتة فيه[٦] أيضا بعد سؤال منكر ونكير ثم الإحياء للحشر . يرشدك إليه قوله تعالى ﴿ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ ﴾ (الملك:١١) حكاية عنهم ، فإنهم ليسوا معترفين بذنوبهم بسبب الإنكار للحشر في حياة الدنيا . وفيه أنه لا دليل على صدور الاعتراف بالذنوب عندهم في الإحيائين معا فيكفي لصدقه[٧] اعترافهم بذلك في حياة الحشر .

ومنهم من قال المراد بذلك هو الإحياء في الدنيا ثم الإماتة فيها قبل الدخول في القبر ثم الإحياء في القبر[٨] ثم الإماتة بعد السؤال فإن المقصود ذكر الأمور الماضية لأن حياة الحشر معاينة ومشاهدة فلا حاجة إلى ذكرها . وأما حمل الإماتة الأولى على خلقهم[٩] أمواتا في أطوار النطفة ، وحمل الثانية على الإماتة بعد[١٠] الحياة في الدنيا وحمل الإحياءين على الإحياء[١١] في الدنيا والإحياء في الحشر[١٢] ، ففيه أن الإماتة تقتضي[١٣] سابقية الحياة ولا حياة في أطوار النطفة .

---

(١) جميع النسخ هكذا ، لعل الصواب (الإحياءات) .
(٢) ز: وفي الجنة .
(٣) أول ق ٧٣ في ز .
(٤) ز: القطعية .
(٥) أ ، ز: والإماتين .
(٦) أ: ففيه .
(٧) ز: فكيف يصدق .
(٨) أ : بدون (ثم الإحياء في القبر) .
(٩) أ ، ز: على خلقتهم ، وما أثبته من « ص» .
(١٠) أ ، ز: بعده ، وما أثبته من « ص» .
(١١) ز: بدون (على الإحياء) .
(١٢) أول ق ٦٢ في أ .
(١٣) أ: يقتضي .

والإنصاف[1] لكل من الفريقين ترك الاستدلال بهذه الآية ، فإن إطلاق الميت على من يتحقق له الإدراك بلذة التنعيم والتعذيب ليس أقرب من إطلاق الإماتة على ذلك على ما يشعر به ظاهر قوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (البقرة:٢٨) عند من له[2] ذوق سليم .

وقد يتمسك المخالف في ذلك بأن نرى ميتا يبقى زمانا ولا نشاهد عليه أثر التلذذ والتنعيم والتألم ، فالقول بها[3] فيه سفسطة وإنكار للمحسوس[4] ، ولو سلم فالتنعيم والتألم لا يتصوران بدون الحياة ولا حياة مع فساد البنية سيما ممن أكلته الوحوش والطيور وتفرق أجزاؤها في بطنها وحواصلها سيما فيمن أحرق بالنار وصار رمادا تذروه الرياح إلى الأرض والسماء . والجواب أن عدم الرؤية لا يدل على العدم لجواز أن لا يخلق الله تعالى رؤيته[5] فينا لحِكَم ومصالحَ كما في الملك وغيره ، ولا نسلم أن البنية شرط للحياة ولو سلم فيجوز أن يبقى من الأجزاء قدر ما يصلح أن يكون بنية لها .

واعلم أن الأشبه أن الأرواح أجسام لطيفة ، والعادة الإلهية جارية بإحياء الأجساد والأبدان بجعلها مشابكة لها فإذا فارقتها يعقبها الموت ثم يعرج بها[6] إلى السماء ويجعل في حواصل طيور خضر تدور في أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديلَ من نور معلقةٍ تحت العرش ؛ إن آمنت وكسبت في إيمانها خيرا ، وإلا يحبط بها إلى سجين ، ويعذَّب فيها إلى يوم الدين . قال ﷺ في قتلى أحد[7] « لما أصيب إخوانكم في أحد[8] جعل الله أرواحهم في أجواف طيور خضر تدور في أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش »[9] .

---

(١) ز: والانصرف ، أ: والإتصاف ، وما أثبته من « ص » .

(٢) أ: بدون (له) .

(٣) ز: والقول بهما .

(٤) ز: للمحوس .

(٥) ز: رؤية .

(٦) أول ق ٧٤ في ز .

(٧) ز: بدون (أحد) .

(٨) أ: بدون (في أحد) .

(٩) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الجهاد ، باب فضل الشهادة ، عن ابن عباس: ١٥/٣ ، رقم (٢٥٢٠) ،وأحمد في مسنده ، مسند بني هاشم ، عن ابن عباس: ٢٦٥/١ ، رقم (٢٣٨٨) ، وأورده الحافظ ابن حجر في الفتح عن ابن مسعود بلفظ متقارب: ٣٤٨/٧ .

فللخصم أن يجعل عرض النار صباحا ومساء في الآية الأولى[1] والإحياء والتنعيم في الآية الثانية[2] إشارة إلى ذلك ويؤول به ماعداهما من الأحاديث . فالقطع بذلك بالنصوص المذكورة مما لا سبيل إليه بل غايته الظن تمسكا بظواهرها .

* * *

(١) هو قوله ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ (غافر:٤٦) .

(٢) هو قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ • فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:١٦٩-١٧٠) .